على هُدى فرعون!

معتصم أبوالغيث

تُعد الصراعات والحروب واحدة من أقدم الظواهر المرتبطة بالمجتمعات البشرية منذ فجر التاريخ، وباستثناء مجموعةٍ من الشخصيات السادية والدموية المحبة للصراعات وما يرتبط به من العنف، فإن هذه الصراعات الحربية لم تكن أبداً هدفاً بحد ذاتها للمجتمعات البشرية، بل هي طريقةٌ تقصدها الأطراف المعنية من أجل الوصول للانتصار وتحقيق أهدافها المرجوة بعد ذلك. وبالتالي فإنه وفي حال كان من الممكن تحقيق تلك الأهداف دون صراع وعنف، كان ذلك من الأحب والافضل لدى أي مجتمعٍ من المجتمعات البشرية بلا استثناء.

إننا وبالنظر إلى الحرب الحالية الدائرة في اليمن، نجد أنها قد باتت ناراً مستعرة تُحرق الأخضر واليابس في طريقها، وأن جميع أطرافها المحلية عاجزةٌ عن إيقاف تلك النار المستعرة بحسم الانتصار لصالح أي منها، وأنه قد بات من المؤكد ضرورة إيقاف تلك الحرب الشعواء، وتوجه جميع أطرافها نحو عملية السلام في أسرع وقتٍ ممكن. إلا أننا وبالنظر إلى الحاصل على أرض الواقع، نجد أنه وكلما تراءت في الأفق مبشراتٌ بأي عملية سلامٍ قادمة، فإنها سرعان ما تذهب وتزول، وتؤول تلك العملية بعد ذلك إلى فشلٍ آخر كسابقاتها !

وتارةً أخرى، فإننا وبالنظر إلى أطراف الحرب الدائرة حالياً، نجد أن جميعها تستند -حسب زعمها- إلى شرعية سلطاتها بمبرراتٍ مختلفة، وبالتالي فإنه ودون الوصول إلى اتفاق تتفق فيه جميع الأطراف على شرعية سلطةٍ واحدة، فمن المؤكد أن السلام سيظل غائباً عن الحضور بشكلٍ دائم، ولن يكون سوى أمنيةٍ بعيدة المنال. وفي المقابل كذلك، فإنه وبغير الاحتكام إلى ديمقراطيةٍ نزيهة، لا يمكن لذلك الاتفاق أن يصبح واقعاً، وفي غياب الديمقراطية سيظل ذلك الاتفاق على شرعية سلطةٍ واحدة، مجرد أمنيةٍ نتمنى وجودها في أرض الواقع، دون أن نراها إلا في أحلام المنام فقط !

إن الديمقراطية النزيهة هي أهم متطلبات السلام في المجتمعات، فحين لا تستمد السلطات شرعيتها من اختيار المواطن لها، واتفاق الأغلبية عليها، فإنها تتجه نحو العنف والصراع والاهتمام بالأفراد الذين سيحملون السلاح لأجلها ويدافعون عنها، تاركةً البقية خلف ظهرها غير آبهةٍ بأمرهم، وهذا نفسه الحاصل في واقع مجتمعنا الحالي. إن ما نتحدث عنه ليس شيئاً جديداً، بل وبالنظر إلى حال التجارب التاريخية في المجتمعات البشرية وتأثيرها عليها، نجد أن كثيراً من المجتمعات التي عانت من تأثير الحروب والصراعات بالأمس، أصبحت اليوم تعيش أماناً وازدهاراً في ظل الديمقراطيات النزيهة، وليست المجتمعات الأوروبية إلا واحدةً من تلك النماذج المذكورة، فبعد أن كانت تقبع في ويلات الصراع والعنف في القرون الوسطى، أصبحت في العصر المعاصر أنموذجاً يُحتذى به ويُقتدى في ذلك، "والحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها".

إن غياب الديمقراطية النزيهة لا يُشكل سبباً لغياب السلام وفقط، بل هي تتعداه إلى ما هو أكثر من ذلك، فحين تصبح السلطة هدفاً يوصل إليه عن طريق الصراع والعنف، فإنه -وكما ذكرنا سابقاً- يصبح كل طرفٍ من أطراف العنف والصراع، مهتماً فقط بالأفراد الذين يحملون السلاح لأجله ويدافعون عنه، في حين يترك البقية غير آبهٍ بمصيرهم وإن كانوا ضمن مناطق سيطرته،

في حين يختفي ذلك في ظل الديمقراطيات النزيهة، لأنه ومن منطلق ضرورة حصوله على الأغلبية، ومن منطلق وجود المنافس والمراقب كذلك، فإن على المترشح للسلطة الاهتمام بالجميع بلا استثناء من أجل الوصول إلى الفوز. وبالعودة إلى الوضع المضطرب الذي يكون فيه العنف طريقاً إلى السلطة، نجد كلما طالت الحرب كلما زادت أطرافها وتكاثرت، فبين كل وقتٍ وآخر، يظهر طرفٌ جديد وهو يحمل معه أحد المشاريع العنصرية! لماذا؟! لأن السلطة تغري الجميع، ولأن العنصرية بمختلف أنواعها المذهبية والعرقية والطائفية ...الخ، سببٌ جيدٌ لتجميع الأفراد المستعدين للقتال معك حتى آخر رمقٍ لهم، وهي سبباً أكثر جودةً، في ظل حربٍ لا تهتم أطرافها إلا بأمر من يقاتلون معها فقط.

ختام الكلام: إننا وبالعودة إلى هُدى القُرآن وآياته، نجد أنه قد جعل من الشورى وتعددية الرأي، علامةً من علامات الإيمان، فسبحانه عزوجل القائل: "والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم"، وكذلك قال تعالى لخاتم رسله يأمره ويوصيه: "وشاورهم في الأمر". في حين أننا وفي المقابل، نجد أنه قد جعل من الاستبداد والتفرد بالرأي، علامةً من علامات الكفر والطغيان، فعلى لسان فرعون موسى قال القُرآن: "وقال فرعون ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد". فيا تُرى، إلى أي الطُرق نريد أن نتجه ؟!